

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، محمد بن عبدالله، خاتم النبيين والمرسلين، وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليماً كثيراً وبعد:

فإن الأمة إذا ضعفت ظهر فيها التزلّف، وكثُر الجدل، وبرز التعامل، وزاد الخلاف. وإذا كان الضعف لأسبابٍ خارجيةٍ كسيطرة عدوّ، أو طمع من جوارٍ، أو تسلّط غاشمٍ فإن ما يكون من الأبناء أشدّ أثراً ووقعاً مما يكون من الأعداء، ويكون هذا سبب الضعف الداخلي.

ضعفت الأمة الإسلامية لتهاون أبنائها بأمر دينهم قبل كل شيء، فإن دينهم كان سبب عزّتهم، وأساس منعتهم، ورفع مكانتهم، وعلو شأنهم، ثم أهملوا ما أعزّهم الله به فأذّهم، فسَلَط عليهم الأعداء، فاحتلّوا بعض الديار، وامتدّ نفوذهم على بعضها الآخر بالعلم، أو بالمال، أو بالتهديد، أو نتيجة الضعف، أو الشعور بالنقص، والحاجة إلى بعض مقومات الحياة، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

وأصابت الأمة هزة فتحرّكت عقول بعض أولي الألباب، وكان منهم صادقون، وكان منهم مخلصون، ففي الأمة خير في كل وقت، وفيها رجال صدق في كل حين، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. عن معاوية ابن أبي سفيان، رضي الله عنهما، قال: سمعت النبي ﷺ يقول

(لايزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضربهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك) ^(١). وظهرت دعوات للعودة إلى دين الحق، وبدأت جهود تُبذل لرأب الصدع، ومحاولات تُعمل للمّ الشعث، وبشّرت الدعوات، وأثمرت الجهود، ونجحت المحاولات، وظهر الأمل، وتوقع الناس الخير، وظنّوا أن الفرج قريب، وماهو إلا زمن قصير ريثما تتهيأ النفوس، وتتقبل العقول التي كانت شاردةً، وتزول منها الأفكار التي كانت مستغرّبةً.

ثم ظهرت في الساحة معاول الهدم، وبالأسف إنها تعمل باسم العلم، وباسم الخير، وباسم الحق، وباسم الدعوة التي بهديها الانطلاق، ومن مسارها الإشعاع، إنهم أناس يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً، وهم يُفتنون وحدة الأمة، ويُفرّقون كلمتها، ويُسْتَتون صفوفها، ويجعلونها مِرْقاً، ومع ذلك يصرون على موقفهم، ويظنون أنهم على حقّ، ولا يدرون ما يفعلون.

فطائفة إذا وجدوا على قائدٍ زلّةً، أو على عالم هفوةً، سواء أكان من رجال السلف الصالح أم من أعلام الزمن المعاصر أقاموا النكير، وتكلموا بالسوء، وربما كفّروه، ولم يُعدّهم عدو سواه، ولا أكثر خطراً على الأمة منه، الحديث عنه في المجالس، وعلى صفحات المجلات، وفي الكتب والتسجيلات، وإذا قلت لهم: اتقوا الله، قالوا: نبين الحقّ، ونُحذّر الأمة. وتبيري طائفة لتدافع عن ذلك العالم الفاضل، وعمّا تعتقد أنه على حقّ، ويقع الخلاف، وتتجزأ الأمة، وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً، والمعول بأيديهم يحملونه ويعملون به هدماً، ومع ذلك يعدّون

(١) متفق عليه.

أنفسهم من أهل العلم.

حبذا لو يتبهنون إلى أنفسهم .

حبذا لو يذكرون حديث رسول الله ﷺ : (كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون)^(١)، فالعالم يخطيء ، وتقع منه هفوات، والجاهل يخطيء، والكبير يخطيء والصغير يخطيء. وخيرهم من يتوب إلى الله ويستغفره.

حبذا لو يذكر هؤلاء فعل أبي لبابة بشير بن عبدالمنذر مع يهود بني قريظة، ويعدّ نفسه أنه خان الله، ورسوله، وتاب إلى الله، فأنزل الله : ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾^(٢).

حبذا لو يذكرون قصة حاطب بن أبي بلتعة، ومراسلته لقريش، وإخبارهم بعزم رسول الله ﷺ على السير إلى مكة لفتحها، والعثور على كتابه، واعترافه ... وتوبته وقبول هذه التوبة من الله ، ورسوله.

حبذا لو يذكرون المخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك . وتوبتهم ، وتوبة الله عليهم.

إن الله عزوجل يغفر الذنوب جميعاً، ويقبل التوبة. وهؤلاء يأبون إلا الإصرار على الشتم، وسوء الكلام. نرجو من الله لهم الهداية والصلاح والإقلاع عن الهدم، والعمل على وحدة الأمة.

وطائفة أخرى تأخذهم العصبية التنتة فلا يرون إلا أصحابهم على الحق، ولا يعرفون سواهم على الوعي الصحيح والطريق السليم. وهؤلاء

(١) رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وأحمد ، والدارمي . (٢) سورة التوبة : الآية ١٠٢

بحاجة إلى أن يعرفوا خطأهم ، ففي الأمة الخير سواء أكان منهم أم من غيرهم . وندعو لهم كما دعونا لأولئك بالاستقامة ، والسداد، والخير ،
والصلاح، والهداية ، لنا ، ولهم .

وهناك من يظن أن له مكانة اجتماعية لما يحمل من علم - حسب رأيه -
لذا يتكلم دون اهتمام ، ويكتب دون مراعاة لعلم أو لما يجب أن يمتاز
به صاحب العلم . فبعضهم قبل أن يخطّ الكتاب يفكّر من يشتم في
المقدمة، حتى غدت مقدمات كتبه نماذج في الشتائم، ويجب أنه يشفي
غليله، ويُعرّف إخوانه ببعض الناس الذين لا يرتاح إليهم . غير أن أناساً
يؤلمهم أن ينزل مستوى هؤلاء الذين يدعون العلم إلى هذا المستوى
فينتقدون ، وربما كان أحدهم موضوع مقدمة الكتاب الذي سيُعدّ،
فينبري لهم من يعجبهم ذلك عصبيةً، ويقع الخلاف ويحدث الشقاق،
ويصل الأمر إلى العلماء، فتتهزل الأمور .

ومنهم من تغرّه نفسه فيضعها فوق مكانتها، فلو وجّه إليه أحدٌ كلمةً
ولو نصيحة اهتزّ كيانه، وإن لم يتكلّم لكن قلمه يعمل مكان لسانه، فإن
كان الناصح من جماعة كان حقه عليها عظيماً، وما من فرصة إلا ويوجّه
الطعن، والكلام، ولا يروق هذا التصرف أهل الخير ، فيُسرّون النصح أو
يتكلّمون خيراً ، فيدافع عن الرجل من لا يعرف الحق بعد ، ويكون
الخلاف، ويحدث الشقاق . إن النصح لهؤلاء وأولئك، وتذكيرهم بأخلاق
العلماء لنوع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن أصاب شرّ أحد
الناصحين لموقع المفرّقين للأمة من الأعداء هو نوع من الجهاد ما دام
الناصح يبذل جهداً للخير . وإن جمع كلمة الأمة والعمل على وحدة
صفتها هو نوع من الجهاد ، كما أن الفرقة، وبعثرة الجهود بالعصبية والطعن

لهو نوع من الخذلان الذي يصب في مصلحة الأعداء. وواجب المسلم النصح، فنصحه إبعاد أخيه عن المهالك ومواطن السقوط والمزالق، على حين أن التعصّب له باسم الحب والتقدير ليس إلا دفعا له نحو المهاوي - أعاذنا الله منها - فانتبهوا أيها المسلمون فلا تستهويكم العصبية للأقاليم، والحزبيات، والصدقات، والمدن، والمشيخة. فالحق أحق أن يتبع، والنصح واجب، والعصبية منهي عنها. والنصح يجمع بين القلوب ويوحد الأمة، والعصبية والسباب تنفر، وتفرّق صفوف الأمة، وهذا ما تعيشه أمتنا بجهود هؤلاء الذين يدعون العلم، ويتصدرون المجالس.

نرجو أن تكون كلمات هذا الكتاب تذكيراً لأولئك الذين يتصدرون، وتنبهاً للذين يتعصبون، وتحذيراً للذين يُغالطون، وينسون آيات الله التي نزلت بأعداء الله، فلا يذكرون خيانتهم وغدرهم، تمهيداً لهم في هذه الأيام، وتقرباً للذين يقفون بجانبهم، وتزلفاً لأصحاب المكانة، ومع الأسف، باسم الإسلام يكتبون، ويتكلمون، ويتصدرون الحلقات، ويرتحلون، ويرفعون الشعار. نرجو لنا، ولهؤلاء، ولأولئك الصلاح والهداية، والإفادة مما يسدى من النصح، بالبعد عن العصبية، وترك المغالطات. والله ولي التوفيق. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

oboiikandi.com

الاستخلاف

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يخلق على كوكب الأرض مخلوقاً جديداً، ذلك هو الإنسان ﴿ وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة.... ﴾^(١).

وعلم الله هذا الإنسان كل شيء في هذا الكون، وعرفه أسماء هذه الأشياء كلها، ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾^(٢).

وسخر الله ما في هذا الكون لهذا الإنسان ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض ﴾^(٣). و ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾^(٤). فالإنسان يستثمر خيرات الأرض، ويستخرج كنوزها ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾^(٥).

والإنسان يستفيد من الأنهار التي تنبجس من الأرض فتخرج ماءً عذباً، تجمع في باطن الأرض مما أنزل الله من مياه الأمطار من السماء،

(١) سورة البقرة ٣٠. (٢) سورة البقرة ٣١-٣٣. (٣) سورة لقمان ٣٠.

(٤) سورة الجاثية ١٣. (٥) سورة الملك ١٥.

ويشرب الإنسان والحيوان والطير من مياه هذه الأنهار ، ويسقي الإنسان مزروعاته، ويركب على متن الأنهار الكبيرة، ويستخرج منها الأسماك فيأكل لحماً طرياً ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء وأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار﴾^(١).

ويستفيد الإنسان من البحر ، فيمتطي متنه حيث تمخر السفن عبابه، ويأخذ المرء السمك من جوفه، كما يستخرج منه الأملاح بأنواعها، واللاكيء، وأنواع المرجان، والأصداف. وتعيش في البحار أنواع من أمم الحيوانات فيعتبر المرء من خلقها، وحياتها ﴿وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار﴾^(١). و ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾^(٢). و ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها، وترى الفلك فيه مواخر ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾^(٣).

والفراغ الذي يحيط بكوكب الأرض مسخر أيضاً للإنسان، إذ في هذا الفراغ الهواء الذي هو عنصر حياة الإنسان الرئيسي، وتهب الرياح التي تلقح النباتات، والتي تسوق الغيوم فيهطل الغيث فيسقي الزرع، ويروي الحيوان، ويشرب الإنسان من الماء، ويتغذى بالنبات والحيوان، كما يتخذ الحيوان مطيةً له ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا

(١) سورة إبراهيم . (٢) سورة النحل : الآية ١٤ . (٣) سورة فاطر : الآية ١٢ .

أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلدٍ ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴿١﴾ . و ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ ﴿٢﴾ .

والهواء ذو كثافةٍ يجعل إمكانية الطيران، وامتطاء الإنسان لهذا الجو . هذا بالإضافة إلى أن ذرات الهواء تجعل إمكانية وصول أشعة الشمس إلى الأرض فتملوها ضياءً مع فوائدها الجمّة لجسم هذا الإنسان، وكذلك وصول أشعة القمر التي تُنير الأرض وقت الظلمة، والشمس والقمر آيتان من آيات الله سخرهما لفائدة هذا المخلوق، فائدة دائبة مستمرة ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴾ ﴿٣﴾ . و ﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ﴾ ﴿٤﴾

ومما يمكن أن يفيدته الإنسان من الشمس إضافةً إلى ما ذكرنا من الناحية الصحية لجسم الإنسان، والنور، تلك الطاقة الحرارية الهائلة التي لا تنفد - بإذن الله - ما دامت الشمس تؤدي دورها الذي قدره الله لها، ولم يذهب ضوؤها وهو ما يحدث يوم القيامة بإذن ربها ﴿ إذا الشمس كوّرت . وإذا النجوم انكدرت ﴾ ﴿٥﴾ .

ولم يستفد الإنسان حتى الآن إلا من كمياتٍ ضئيلةٍ من هذه الطاقة الهائلة في مشروعاتٍ قليلةٍ.

وسخر الله النجوم ليهتدي بها البشر في طريق سيرهم، ومعرفة توجّههم، فهي إشارات ودلائل للإنسان ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٧. (٢) سورة الحجر: الآية ٢٢. (٣) سورة إبراهيم: الآية ٣٣.

(٤) سورة الزمر: الآية ٥. (٥) سورة التكوير: الآيتين ١-٢.

لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴿^(١)﴾ .

وخلق الله الأنعام مطية للإنسان، وزينةً، وطعاماً، ووسيلةً للنقل ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينةً ويخلق ما لا تعلمون﴾ ^(٢) .

ويعيش في الأرض وفي الجو مخلوقات كثيرة تشكّل كل فصيلةٍ منها أمةً خاصةً بها، لها أسلوب حياتها، ولغتها التي تتفاهم بها... ﴿وما من دابةٍ في الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ ^(٣) .

وفضّل الله الإنسان على بقية المخلوقات إذ جعله المهيمن عليها، وجعلها مسخرةً له. ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ ^(٤) . كما كان خلق الإنسان مميزاً على غيره من المخلوقات ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ ^(٥) .

وإضافةً إلى تمييز هذا المخلوق الإنسان على بقية المخلوقات فقد كانت نعم الله كثيرةً ظاهرةً وباطنةً لا تُعدّ ولا تُحصى ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنةً...﴾ ^(٦) و ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾ ^(٧) .

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٧ . (٢) سورة النحل: الآيات ٥-٨ .

(٣) سورة الأنعام: الآية ٣٨ . (٤) سورة الإسراء: الآية ٧٠ .

(٥) سورة التين: الآية ٤ . (٦) سورة لقمان: الآية ٢٠ . (٧) سورة نحل: الآية ١٨ .

وإن أهم ما يميّز الإنسان عن بقية المخلوقات هو العقل الذي يجعل صاحبه يُفكّر فيما حوله، وفي هذا الكون وما فيه من آياتٍ فيعتبر، ويؤمن، ويسلم أمره كله لخالقه، ويُخلص له النية فيما يعمل، ويتوصل إلى ضرورة العبادة لله، ويعتقد بإرسال الله للأنبياء ليُعرّفوا الناس على منهج الله، وليُعلّموهم العبادة لخالقه. فالإنسان ليس بحيوانٍ ناطقٍ كما يدّعي الفلاسفة بل هو مخلوق عاقل، إذ لكل أمةٍ من الحيوانات لغة خاصة بها تتفاهم بها فيما بينها، فالنحل له لغته، وللنمل لغته، ولكل نوع من الطيور لغته، وقد تكون هذه اللغة مسموعةً كدوي النحل، وربما تكون غير مسموعةٍ كلغة النمل. كما أن البيغاء تحاكي أصوات غيرها من المخلوقات وتقلّدها، ومنها الإنسان، ومع نطقها فهي ليست بإنسان بل مخلوق ناطق.

والإنسان بما وهبه الله من عقلٍ، وبما منحه من قدرةٍ لاستعمال هذا العقل فهو يمكنه التمييز، كما يمكنه إدراك آيات الله في هذا الكون، وهو مطلوب منه التفكير دائماً، والتدبّر باستمرار ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾^(١). و ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾^(٢). و ﴿ إن في ذلك لعةً لأولي الأبصار ﴾^(٣).

الكون أرضاً، وبحراً، وجواً مجال مفتوح لتعرّف الإنسان على آيات الله،

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٩ و٢٦٦.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩٠-١٩١.

(٣) سورة النور: الآية ٤٤.

وأسرار خلقه، ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من
أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾^(١).
فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ومنحه مواهب معينة تُؤهله ليكون
مستخلفاً في الأرض ويؤدّي دوراً يريد الله له.

(١) سورة الرحمن : الآية ٣٣.